

الرق في الجاهلية والاسلام

د/حميد الله عبدالقادر*

معنى الرق ونشأته:

الرق في اللغة العبودية، وسمى العبيد رقيقاً، لأنهم يرقون لمالكهم، ويدلون ويخضعون والرقيق هو المملوك. وقيل الرق في اللغة: الضعف ومنه رقة القلب (١) وهو نظام اجتماعي معروف بين الشعوب القديمة، واستمر قائماً حتى أحرىات القرن التاسع عشر، وكان يعتبر بين تلك الشعوب نظاماً مشروعاً تحميه قوانين الدولة (٢).

وعرف أيضاً بأنه حرمان الشخص من حريته الطبيعية، وصيرورته ملكاً لغيره (٣)، وهذا ما كان مصطلحاً عليه الأمم القديمة.

ولقد عرف الرق من قديم، وكانت الحرب بادئ الأمر عاملاً على نشأة الرق، وذلك ان القوى حينما كان يظفر بالضعيف يقتله ولا يقبل بغيره القتل بديلاً، وكان الناس في ذلك الوقت يعملون لأنفسهم فكان الرجال يقومون بالصيد والحروب وكان النساء والأبناء يقومون بغير ذلك من الأعمال.

وكانت الجماعات البدائية لا ترى فارقاً بين الحرو والعبد، ولا تجد رقا ولا طبقات، ولا تدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه الاقدرا ضئيلاً، وبالتدريج، أخذ تقسيم العمل. وما يقتضيه الاختلاف بين الناس، يستبدل شيئاً فشيئاً المساواة بقليل من التحكم الذي زاد على مرور الأيام، ثم لما از دادت الآلات والصناعات تعقداً، عمل ذلك على اخضاع الضعيف لمشيئة القوى، وكلما ظهر سلاح جديد في أيدي الأقوياء زاد من

* الاستاذ المساعد بقسم الدراسة الاسلامي - جامعة بنجاب، لاهور

سلطانهم على الضعفاء واستغلالهم اياهم.

ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز في الفرص السانحة امتيازاً في الأملاك

وقسمت المجتمعات التي كانت يوماً متجانسة إلى عدد لا يحصى من طبقات وأوساط، وأحس الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم احساساً يؤدي إلى التشاحن، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال التاريخ حتى انتهت إلى وجود طبقة من الناس تُستخدم وكأنها آلة تتحرك بغير ارادتها يحركها الغير، وكأنها دمية توجه حسب ما يريد لها سيدها(٣)

ولم يستطع الفلاسفة القدامى ان يغيروا شيئاً من الواقع، وانما زادوه تشيئاً، وكأنما هذا الصف من الناس انما خلق بغير ارادة ولا حول ولا قوة، فأفلاطون يقضى في جمهوريته الفاضلة بحرمان الرقيق حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقبض منه كما يريد.

ومذهب ارسطو في الرق ان فريقاً من الناس مخلوقين للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذو الفكر والمشينة، فهم الآلات حية تلحق في عملها بالآلات الجامده.

ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية ان بتو سموا فيها القدرة على الاستقلال والتميز فيشجعوها ويرتقوا بها منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد(٥)

الرق قبل الإسلام

كان الرق من دعائم المجتمع عند قدماء المصريين، وكانوا يتخذون الاماء للخدمة، وللزينة، ولمظاهر الأبهة، فكانوا بقصور الملوك، وبيوت الكهان والأعيان،

وهم وإن كانوا يسيئون معاملة رقيق الخدمة بحيث يعتبرونهم كألة صماء فإن رقيق الزينة على العكس، فقد كانوا يلقون معاملة حسنة كما يدل على ذلك قول العزيز لامرأته في حق يوسف على السلام.

”وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا.. (٦)

ولقد أباح العبرانيون الرق، وذكر في التوراة في مواضع (٤)

وكان الرق عندهم نوعين: استرقاق الأفراد لارتكاب خطيئة محظورة، واسترقاق غير اليهود في الحروب (٨)

وكذلك اباحت المسيحية، وأمر بولس مدعى الرسالة العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح فقال في رسالته الى اهل أفسس:

”أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما لرب ليس للناس عاملين انه مهما عمل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً“

وأوصى مدعى الرسالة بطرس بمثل هذه الوصية، وأوصاها أباء الكنيسة، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوا من غضب السيد الأعظم (٩)

ونص في الانجيل على ان الناس كلهم اخوان، ولكنه لم ينص على منع الاسترقاق لذلك أقرته جميع الكنائس على اختلاف انواعها ولم ترفيه أقل حرج.

ولم يرم من جاء من باباوات النصارى ولا قديسيهم حرجاً من إقرار الرق حتى قال باسيليوس في كتابه القواعد الأدبية بعد أن أورد ما جاء في رسالة بولس الى أهل أفسس: ”هذا يدل على أن العبد تجب عليه طاعة مواليه تعظيماً لله عز وجل“ ان الطبيعة (هكذا قول بولس) قضت على بعض الناس بأن يكونوا أرقاء واستشهد على نظريته

(كما يرى هـ: رأى بولس) بالشريعة الطبيعية والشريعتين الوضعية والإلهية. وقال القسيس المشهور بوسريت الفرنسي: ان من حق المحارب المنتصر قتل المقيهور. فان استبعد واسترقه فذلك منه منة" و فضل ورحمة.

وقديقى لاسترقاق معتبرا من الأمور المشروعة لدى المسيحين فقد جاء في دائرة معارف لاروس ان رجال الدين الرسميين يقرون صحة الاسترقاق ويسلمون
بتبرغينه (١٠)

و اذا كانت الاديان التي سبقت الإسلام، قد اباحت الرق، فان جميع الأمم المعروفة في القديم قدا باحته كذلك. ففي الهند قسمت الشرائع البرهمية القديمة لأشخاص السلمزمين بالخدمة الى قسمين وهما الخادمون والأرقاء، فالأعمال الطاهرة من حصائص الخادمين، والأعمال النجسة على عواتق الأرقاء (١١)

و كانت الشريعة الهندية تقضى على أن الرقيق لم يخلق إلا لخدمة البرهمي - وهم الطبقة المقدسة عندهم - فكانوا يتخذون الرقيق من إحدى طبقات المجتمع التي تعتبر صفة العبودية لازمة لها حتى لو تخل السيد عن عبده فإنه يبقى رقيقا لا يصلح ان يتمتع بحريته كغيره من الناس، وكانت القوانين عندهم تقضى بقتل العبد لأقل هفوة يرتكبها، اما التنكيل به والانتقام منه بسائر الوسائل الوحشية فحدث ولا حرج (١٢)

وكان الرق عند الفرس بدولتهم العظيمة التي امتدت في حدود آسيا المعروفة كثيرة، فكان الأرقا الرعاة، والأرقاء المختصون بحاجات الزينة والثروة واليسار، منهم من خصص لعمل القبايح المنكرة التي قضت بها خرافات القوم.

قال هيروت: "ولا يجوز لأى قاس أن يعاتب عبده على ذنب واحد اقترفه بعقاب بالغ في الشدة والصرامة، لكن اذا اعاد العبد لارتكاب هذا الذنب بعد ما أصابه من العقاب، فلمولاه حينئذ ان يعدمه الحياة أو أن يعاقبه بجميع ما يتصور من انواع العذاب (١٣)

ولعل الصين كانت في القديم من أكثر الدول اعتدالا في معاملة رقيقها فكان يستخدمه للمدفعه العامه، وكانوا يجلبون الرقيق من الخارج بواسطة الحروب والأسلاب، أو يأخذونهم من البلاد بسبب الفقر والحاجة، لأن الفقير كان يضطر لبيع نفسه أوليبيع أولاده، وكان الاسترقاق في تلك البلاد قليل الشدة والصعوبة، لأن الشرائع والعرف والأخلاق كانت تساعد على تلطيف حاله، وقد ورد في آثارهم "أن الإنسان هو أفضل وأشرف المخلوقات التي في السماء والتي على الأرض، فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل في إخفاء جرمه، ومن أخذت به الجراءة فكوى رقيقه بالنار، حوكمه على ذلك بمقتضى الشريعة، ومن كواه سيده بالنار دخل في عداد الوطنيين الأحرار" (١٣).

وإذا تركنا آسيا وانتقلنا إلى أوربالم يكن حال الرقيق بأحسن مما كان عليه الحال في بلاد فارس أو الهند.

فلقد كان المجتمع اليوناني المقسم إلى سادة وعبيد يبالغ في احتقار العبيد على الرغم من استخدامهم في سائر المرافق، وكانوا يعتقدون ان الأرقاء انما خلقوا لخدمة السادة والأمراء، وكانوا يعتبرونهم جزءاً من الأرض يباعون ويشتررون، وكان المورد الأساسي للعبيد عندهم الأسر في الحروب وأهل البلاد المغلوبة التي يعملون فيها، وكانت القرصنة هي المورد والثاني للعبيد.

وعندما نشطت تجارة الرقيق في أثينا لم تقف مطاعم النخاسين عند حد، وصار القرصان اليونانيون يخطفون المسافرين والسكان الآمنين في الشواطئ الأفريقية والأوربية وبيعونهم للناس في الأسواق من غير خجل ولا تكبر (١٥).

وكان حق المولى على عبده انه جزء من أملاكه وأمتعته، فله رهنه أو بيعه، والتصرف فيه كما يشتهي لا يمنعه ما.

ولم يكن الحال عند الرومان باقل من ذلك، بل كان يبيعونهم من حيث استخدامهم في

الاعمال الجسمانية، ومساواتهم بالأمته والفرش، فكانوا يباعون بالمزاد، وكانوا يوقفون على مكان عال بحيث يتيسر لكل واحد ان يراهم ويمسهم بيده، ولو لم يكن له نية في شرائه، بل احيانا كانوا يشاهدون كيوم ولدتهم امهاتهم.

وكان الرق في نظرهم نتيجة الأسر أو الميلاد أو الدين أو الفرار من الجيش (١٤). ومن العجيب ان الدولة كانت تسترق بعض الافراد بسلطة القانون مثل ان يمتنع الشخص من أداء الضريبة أو يعيب عندما يطلب منه الحضور فيمتنع فيصبح حينئذ في عداد الأرقاء، وكذلك كان المجرمون والثوار يسترقون للدولة. أما المملحدون في الدين فكانوا يسترقون للمعاد.

وكان الاسير طيون يكرون العبيد لمن يرغب في ذلك، ويشغلونهم في الحروب والقتال زيادة في الخدمة، وفلاحة الأراضى وحراستها وغير ذلك من انواع العمل الشاق.

وكانت القرون الوسطى مسرحاً لاسترقاق، وتكاد كلها تشابه به مع الرومان. ويعتبر الرقيق كجزء من متاع البيت فهو بمنزلة الفرس والثور وغيرهما من الحيوانات المستخدمة الأهلية فكان المولى في شرعهم يتصرف بعده كما يتصرف بما عنده من الأشياء ذات القيمة، وكان لا يجوز له قتله لأنه شيء من الأشياء التي تملكها يمينه.

ولم يختلف الاسترقاق عن سابقه عند الغاليين وهم السكان المعروفون في فرنسا وأمام جبال الألب في ايطاليا الشمالية، واقاليم الفايبا في الجزر البريطانية واسبانيا وكذلك سكان جرمانيا-المانيا-فكانو يحتكمونهم بطريقة الشراء أو الميراث، وكانوا يكلفون بخدمة المنازل وكان الولي يفرض عليه مقداراً من القمح أو الماشية أو الملابس كأنه من مؤاجريه، وكان سكان نهر الرين الأسفل اذا تزوج أحدا لأهالي بريقة اجنبية وقع في لرق والاستعباد، وكذلك المرأة الحرة التي تزوج بريق تفقد حريتها، وينالها

العقاب.

وكان عند القوط ان المرأة الحرة اذا تزوجت برقيقها، كانت عقوبتها أن تحرق هي واياه وهما على قيد الحياة، واذا كانت لا تمتلك العبد بفسخ النكاح، ويجلد كل ولكن التصرف في العبد بالموت كان يلجأ السيد الى القاضى ليحكم حكمه ثم يسلمه لسيدته ليفصل به ما يريد و كانت قبائل الـ ويز يغوط تشدد النكير فى مسألة تزواج الأحرار بالأرقاء حتى نص القانون على أن المرأة الحرة اذا تزوجت بعدها فعقابها ان تحرق هي وهو حين، و كذلك كانت قبائل الـ استر و غوط فقد كانوا يقتلون المرأة لتى تشزوج بعبد(١٨)

وكان الأنجلو ساكسون يقسمون الرقيق الى نوعين هما الرقيق المشبهون بالمنقولات والمشبهون بالعقارات فالصنف الأول يجوز بيعهم اما الآخرون فكانوا لا ينفكون عن الأرض يقومون بحراستها وزراعتها(١٩)
من هذا يتبين ان الأرقاء لم يكن لهم أى تصرف فى أنفسهم، ولا أمل لهم فى حياة انسانية أو شبه انسانية.

ولم يكن الحال فى امريكا باقل منه فى الدنيا القديمة، وكانت القوانين تصرح بأن للسيد كل حق على عبده حتى حق الاستحياء والاماته.

وكان يجوز للمالك رهن عبده واجارته والمغارمة عليه وبيعه كأنه بهيمة، وقد صرح قانونهم على أن ليس للعبد روح ولا عقل وأن حياتهم محصورة فى أذرعهم(٢٠)
ولقد بدأ الغاء الرق فى أمريكا فى منتصف القرن الثامن عشر وفى سنة ١٧٨٨ م نشبت الحروب بين الولايات الشمالية والجنوبية من أجل اعلان حرية العبيد، ولم يتحقق إلا سنة ١٨٦٥ م بعد انتصار الشماليين على الجنوبيين وقد ظلت التفرقة العنصرية شائعة سنوات عديدة ولم يكن من الممكن أن يدخل العبيد فى الأماكن التى فيها الأسياد ولا أن يركبوا مراكبهم وكثيرا ما كان البيض يثورون ضدهم ويشبعونهم

ضربا وتقتيلا وكان القانون دائما في صف البيض .

ولقد بقى الرق على شرعيته عند غير المسلمين الى أن قررت الثورة الفرنسية الغائه سنة 1791م ومع ذلك فإن عامة البلاد الاوربية والأمريكية ظلت تمارسه الى نهاية القرن التاسع عشر أى بعد الثورة الفرنسية التي اعلنت صبادئ الحرية والمساواة بين الناس بما يزيد على قرن كامل من الزمن .

وكان الرق فى الجزيرة العربية لا يختلف كثيرا عما كان عليه فى لامم الأخرى، وكانت الحروب الدعامة الكبرى للرق، فعندما تقوم الحرب، وبأسرا لغالب المغلوب يأخذه أسيرا عنده، وأيضا كان الرق نتيجة للشراء بعد أن يخطف الرقيق فلقد خطف زيد بن حارثة وهو صغير فى اثناء لعبه بعيدا عن امه وهو عنه احواله، ثم بيع فى احدى الأسواق القريبة من مكة واشتراه حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة بنت خويلد ثم اهداه حكيم إلى عمته ولما رأت رضى الله عنها رغبة زوجها الأمين محمد بن عبدالله قبل البعثة أن يلازمه فيقوم بخدمته قدمته إليه هدية فلأزم الرسول ﷺ قبل الرسالة وبعدها .

وكانت تجارة الرقيق من اهم موارد الثروة عند أهل مكة فى الجاهلية ومن اشهر تجار الرقيق عبدالله بن جدعان، وكان ذا تجارة واسعة فى الرقيق .
ولقد حرم الأرقاء فى الجاهلية عن كافة الحقوق المدنية، ومن التصرف فى شئونهم الخاصة .

وكان العبد أحيانا ينال حريته وذلك اذا أظهر شجاعة فائقة فى الحروب والقتال ضد من يعتدى على سيده وعلى قبيلته، ويحفظ لنا التاريخ قصة عنترة المشهورة، وعتق وليه وأبوه له، وجعله حرا يتصرف تصرف الأحرار بعد أن كان عبدا يرعى الغنم، وايضا فقد يكون الاخلاص الشديد سبباً فى العتق ومهما يكن من وجود طريق إلى حرية الرقيق فقد كانت قليلة بل نادره، وكانت معاملة الرقيق لاتخرج عما كان متبعها فى الدول الأخرى .

الرق في الإسلام

جاء الاسلام والعالم تتحكم فيه قوتان كبيرتان هما الفرس في آسيا والروم في أوروبا، والفوارق الطبقيّة بلغت مداها، وما يزال منتشر الرقيق يعاملون وكأنهم جزء من المتاع لا يملكون من أنفسهم شيئا.

جاء الرسول الاعظم محمد بن عبد الله ﷺ في الجزيرة العربية بشريعة رب العلمين، فيها سعادة البشر في الدنيا والآخرة ولم تكن دعوته لقوم دون قوم، أو لطائفة وحدها وإنما هي دعوة لجميع البشر، انحاء المعمورة لا تتقيد بمكان أو زمان الى يوم القيامة:

”وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا و نذيرا“ (٢١)

و اول مادعا اليه الاسلام حفظ كرامة المسلم، وتحريره من كل القيود لا فرق بين أسود وأبيض أو غنى وفقير أو حاكم ومحكوم، الكل امام الله سواء: ”يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكروا نثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرم عند الله اتقاكم“ (٢٢)

ومما يروى في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما روى أنها نزلت في أبي هند امر رسول الله ﷺ بنى بياضة أن يزوجه امرأة منهم، فقالوا يارسول الله و تزوج بناتنا موالينا فنزلت الآية.

ويقول الرسول: ”لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود الا بتقوى الله“ (٢٣)

ولقد عامل الاسلام في أول عهده الرقيق الزين اسلموا وما يزالون قريبين من العهد الجاهلي. أحسن معاملة، ولم يبلغ ماسبق في الجاهلية حتى لا تفسد أمور الناس، وينشغلوا عن أصل الرسالة بأمر جانبيّة.

لقد عاملهم معاملة حسنة، وكان اسلامهم طريقا الى التخلص من الرق بطريق

مشروع كأن يُشترى العبد المسلم من سيده يعتق كما حصل للعبد بلال بن رباح، فقد أسلم، ولكنه ما يزال عبد السيده امية بن خلف الذى اذاق بلالاً كل أصناف التعذيب فكان يتركه فى حرارة الشمس القاتلة ساعات الظهيرة كى يرجع عن اسلامه ولكنه كان قوى الايمان فتحمل العذاب الأليم إلى أن جاء ابو بكر الصديق واشتراه وأعتقه.

. ولقد وجد الرقيق فى الإسلام عزا وكرامة، ووجدوا فى اخوة الإسلام ما جعلهم يعيشون احراراً، يرتقون بهذه الاخوة الى اسمى الرتب وتضرب لذلك مثلاً يزيد بن حارثة وابنه اسامة الذى ولى قيادة جيش المسلمين ولما نزلت الثامنة عشر وقد ولاه الرسول ﷺ فى آخر حياته ونفذه كبار الصحابة بعد وفاته، ومشى ابو بكر الخليفة رضى الله عنه. وهو راكب وكان تحت قيادته الصحابة من امثال عمر و على وغيرهما رضى الله عنهم اجمعين.

ولقد افتخر المسلمون بأن رابع الذين أسلموا كان زيد بن حارثة، فقد أسلم بعد السيدة خديجة زوج الرسول عليه السلام وأبى بكر و على رضى الله تعالى عنهما.

هل فى الاسلام رق؟

الاسلام لا يبيح أن يسترق مسلم مسلماً مهما كانت الدوافع العدائية بينهما، فالمسلم المولود من أبوين حرين لا يجوز استرقاقه فى أى حال من الأحوال، فالاسترقاق لا يجوز بين أهل الدين الواحد، بل لقد جاء فى القرآن الكريم النهى عن مقاتلة المسلمين بعضهم بعضاً.

يقول المولى سبحانه وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ الى امرالله فان فاءت

فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (٢٣)

وكذلك لا يبيح الاسلام للمسلمين استرقاق أهل الكتاب الذين يعيشون بينهم

والذين أمنهم على أنفسهم وأهلهم وأموالهم. وكذلك الذين ليس لهم كتاب كعبدة الأوثان، والذين لم تحاربهم فالصحيح ان استرقاقهم لا يجوز مطلقاً.

ولقد أغلق الاسلام كل ابواب الرق التي كان السابقون يتخذونها ذريعة الى الاستعباد والتحكم الأعمى فى رقاب بنى آدم الذين كرمهم الله وفضلهم على جميع المخلوقات وأحل لهم الطيبات وجعل فيها رزقهم (ولقد كرمنا بنى آدم وحملنا هم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلنا هم على كثير ممن خلقنا تقضيلاً) (٢٥)

فلا أسرى بدون حرب، ولا نهب للناس، ولا استعباد بالدين او المراهنة أو القوة أو الاستحسان.

ولقد حاول الإسلام جهده أن يلغى ذلك النظام ويحول دون انشار الرق بثتى الوسائل فقد قال فقهاء الاسلام: ان كل من أسلم قبل الأسر فى الحروب بين المسلمين وغير المسلمين عصم نفسه وماله وإن مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى وإذن فالرق الموجود فى الإسلام إنما يكون فى حالة واحدة هى الحرب التى شرعها الإسلام لحماية الدعوة والدفاع عن أنفس المسلمين كما جاء فى قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الآن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان لله لقوى عزيز) (٢٦) فهذه الآيات تفيد ما يأتى:

أولاً:

أن تشريع القتال فى الإسلام إنما كان لحماية الدعوة، وحماية المؤمنين المضطهدين فهو دفاع لاهجوم ووسيلة لغاية شريفة.

ثانياً:

أن القتال من هذا النوع هو من باب ما يقال "القتل انفى للقتل" فالمراد به هو

استقرار السلام ضمان الحريات العامة فالحرب التي يقوم بها المسلمون لحماية دعوتهم تستوجب ظهور الايمان ونصرة العقيدة، بدون اكراه لغيرهم، فلقد كانت بيوت العبادة لليهود وللنصارى قائمة بجانب المساجد وكانت هناك دائما حرية العبادة للجميع.

ثالثاً:

أن الغاية من حرب الإسلام هي أن يتمكن المسلمون من إقامة شعائر الدين بكل حرية ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.
ومعنى ذلك أن يتحقق وجود العالم الأفضل الذي أراده الله لعباده وتستأصل الرذائل والشور من هذه الأرض (٢٤)

فإذا قامت الحرب واشتدت وتعرض الطرفان للقتل والأسر فماذا سيصنع الأعداء بأسرى المسلمين؟

لاشك في أنهم سيأخذونهم رقيقاً عندهم، فهل يطلق المسلمون الحرية لانسرى أعدائهم بينما المسلمون الأسرى هم عبيد لغيرهم يباعون ويشترون.
لذلك نجداً لإسلام جعل هذه الحالة ضرورة وقتية تزول بزوال أسبابها و دوافعها.

وهل أيضاً معاملة العدو بمثل معاملته، وحيث أنه لم تكن هناك قوانين عامة تحمي أسرى الحرب من الإسترقاق، فليس هناك وسيلة للضغط على العدو من أجل تحسين معاملة الأسرى الذين يقعون في يده ومحاولة استخلاصهم من الرق.

والإسلام لم يوجب هذا الإسترقاق الذي جاء عن طريق الحرب، بل أباح الخيار بين أن يقبل الفداء من أسرى العدو أو يمن عليهم بآء طلاق سراحهم بدون فداء، وهذا ما حرصت به الآية الكريمة، فقال تعالى (حتى إذا أنخنتم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) (٢٨)

ولقد تأسى الخلفاء الراشدون الصالحون من بعد مجاء به القرآن الكريم وما فعله الرسول الأمين، فكثيرا ما كانوا يمتنون على الأعداء المقاتلين بالفداء أو بدونه ويتركونهم انتغاء وجه الله وكثيرا ما كانت هذه المعاملة الحسنة تأسر قلوبهم.

ولقد وجدنا البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي قائد الحروب ضد الصليبيين يطلق آلاف الأسرى من أعداء الإسلام الذين أتوا من أور وبا يقصدون الإستيلاء على البلاد واهلاك العباد والذين هاجموا بلاد المسلمين وكبدوها من الخسائر في النفوس والأموال الكثيرة (٢٩)

ولن ينسى التاريخ ما فعله الرسول الأعظم بأسرى غزوه بدر فقد جعل المفاداة لهم بالسلم أو بأسرى مسلمين أو بالقيام بعمل شريف نبيل كتعليم العلم فقد جعل الرسول ﷺ فداء كل أسير تعليم عشرة صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

وتغنى شعراء المسلمين بالمن على الأسرى واطلاق سراحهم وجعله من أكرم الصناعات وأنبأ الأفعال إذ يقول شاعرهم:

ولا تقتل الأسرى ولكن فكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

الإسلام يدعو لتحرير الرقيق:

اعتبر الإسلام الرق عارضا حتى قال العقاد رحمه الله: "شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق: إذ كان الرق مشروعاً قبل الإسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه: رقيق الأسرى في الحروب، ورق السبي في غارات القبائل بعضها على بعض، ورق الاستدانة أو الوفاء بالدين وغير ذلك مما كان القوم يستحدثونه.

ولهذا شرع الإسلام وسائل كثيرة إن حصل رقيق في حرب وذلك مساعدة للأرقاء على استرداد حريتهم، واستقلالهم، فأوصى الله تعالى بالأرقاء وبالذعوة إلى اطلاق سراحهم، وكما أوصد الإسلام كل ابواب الرق المحرمة فإنه فتح أبواب التحرير على مصاربعها لأنه يدعو إلى الحرية ورفع نير الاستعباد ولاضطهاد وازالة كل وسائل

الامتهان والاحتقار والسخرية والإزدراء، وبهذا ألقى جميع صور و مصادر الرق الأخرى المبنية على الظلم والجور والحيث والتعسف واعتبرها محرمة شرعا لا تحل بحال.

دعا الإسلام إلى مكاتبة الأرقاء، ندب إلى اعتاقهم وحث على ذلك فقال تعالى في كتابه العزيز (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيما نكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (٣٠)

ومما ورد في سبب نزولها ما أخرجه ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملو كاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتاب فأبى فنزلت الآية (٣١)

بل لقد نهى الشرع الحكيم عن استخدام الرقيق فيما حرم الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) (٣٢)

ومما ورد في سبب نزول هذه الآية ما روى عن ابن عباس بسند صحيح قال كانت لعبد الله بن أبي جارية تزنى في الجاهلية فلما حرم الزنا قالت لا والله لأزنى أبدا فنزلت (٣٣)

وجعل الشرع الحكيم وسائل فردية تحرى فيها الإسلام العتق وتعجيل فكاك الأسرى ومن ذلك جعله العتق كفارة عن كثير من الذنوب. كالقتل الخطأ فقال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كانت من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) (٣٤)

فمما ورد في سبب نزول هذه الآية أن الجادث بن يزيد من بني عامر لؤى كان يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل ثم خرج الحارث مهاجرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقبه عياش بالبحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت الآية. (٣٥)

كذلك اذا حنت المسلم يمينه فإن كفارته أيضا عتق رقبة قال تعالى (لا يؤاخذكم

الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) (٣٦)

وكذلك الذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا قال تعالى (والذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) (٣٤)

أيضا بحسب من الرذائل المأخوذة على الإنسان السنى انه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه القرية المؤكده، انها سبيل إلى رحمة الله، وطريق إلى جنته (فلا اقتحم العقبة ما ادراك ما العقبة فك رقبة) (٣٨)

وأیضا فقد جعل الشرع الحكيم للإعتاق بابا من أبواب الزكاة، وقسمها سبحانه وتعالى بنفسه وجعل منها سهمًا مفروضًا لتحرير الرقاب. قال تعالى (أغا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب) (٣٩) ففي الرقاب إنما يكون العتق.

وكذلك السنة ترغب لعتق رقبة. وكذلك من أعتق نصيبه من مملوك عتق عليه كله بالسراية وسلم قيمته لشركائه إن كان موسرا، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من أعتق شقصا من مملوك فعليه خلاصه كله فى ماله فإن لم يكن له مال قوم المملوك قيمة عدل ثم استسعى العبد غير مشقوق عليه (٤٠)

وكذلك من ملك ذارحم محررم عليه كآبيه وأخيه وعمه وخاله. وأمه وعمته وخالته عتق عليه قهرا لقوله عليه السلام "من ملك ذارحم محررم فهو حر" (٤١)

أيضا من جرح مملوكه عتق عليه، فقد جاء فى الحديث: أن رجلا جرد أنف غلامه فقال صلى الله عليه وسلم "أذهب فأنت حر" فقال: يارسول الله فمولى من أنا؟ قال صلى الله عليه وسلم مولى الله ورسوله. (٤٢)

وإذا وطىء حرأمته فأتت منه بولد صارت أم ولد له تعقق بموته لحديث ابن عباس يرفعه "من وطىء أمته فهى معتقة عن دبره". (٤٣)

القول يتبعه العمل

لقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه المثل لنقتدى به فكثيرا ما كان يحث الصحابة على حسن معاملة الرقيق وهي القلة الباقية ثم حضهم على العتق والحرية. وقال رسول الله ﷺ "إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليأكله وله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين. (٣٣)

وعن ابن مسعود قال "بينما أنا أضرب غلاما لي إذ سمعت صوتا من خلفي أعلم يا ابن مسعود مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال: والله لله أقدر عليك منك على هذا. (٣٥)

ويبلغ من رحمة رسول الله ﷺ أنه كان لا يطيق أحدا أن يقول: كان عبدى وأمتى وأنه أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك، وأن يقولوا فتاى وفتاتى (٣٦)

وكان لهذه التربية أحسن الأثر في تحرير الأرقاء ونشر المسادة بين المسلمين. وروى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلا على دابة و غلامه يسعى خلفه فقال: "يا عبد الله أحمله خلفك فانما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة".

وروى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال "أيما مؤمن أعتق مؤمنا في الدنيا أعتق الله تعالى بكل عضو منه عضوا من النار. (٣٧)

ولقد ضرب لنا الصحابة المثل الأعلى في معاملة أرقائهم، فساد وهم بأنفسهم بل أحيانا كان يفضل الواحد منهم عبده على نفسه. فقد روى أن علي بن ابي طالب قال: إنى لأستحي أن استعبد إنسانا يقول ربى الله.

ومما روى عن علي أنه أعطى غلاما دراهم يشتري بها ثوبين متفاوتى القيمة، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة وحفظ لنفسه الآخر وقال له: أنت أحق منى بأجودهما لأنك شاب و تميل نفسك للتجمل أما أنا فقد كبرت.

ولقد عنى الإسلام بنفسية الأسير والرقيق عناية خاصة فقال الله تعالى يطيب

خاطرهم ويفتح باب الأمل فى المغفرة وحسن الجزاء (بأيها النبى قل لمن فى ايديكم من الاسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم و يغفر لكم والله غفور رحيم). ولقد اتنى على الاسلام ومعاملته للرقيق كثير من المنصفين من الأوربيين والمستشرقين فقد وقف المستشرق "خان دنبرغ" معاملة الاسلام للرقيق فى هذه العبارة: "لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد ﷺ واتباعه نحوهم من الشعور الانسانى النبيل ففيها تجد من محامد الاسلام ماينا قض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تسير فى طليعة الحضارة.

نعم إن الإسلام لم يبلغ الرق الذى كان شائعا فى العالم، ولله عمل على كثير من اصلاح حاله وأبقى حكم الأسير ولكنه أمر بالرق. يقول جوستاف لوبون: "إن الرق عند المسلمين غيره عند النصارى فيما مضى، وإن حالة الأرقاء فى الشرق أفضل من حال الخدم فى أوروبا، والأرقاء يؤلفون جزءا من الأسرة ويستطيعون الزواج بنات سادتهم أحيانا أى بعد ان يعتقوا. ويقدررون أن يتسمنوا أعلى الرتب، وفى الشرق الايرون فى الرقيق عارا، والرقيق فيه أكثر صلة لسيدته عن الأجير فى بلادنا. (٣٨)

لماذا لم يبدأ الإسلام بالغاء الرق؟

إن الإسلام قد وضع الأساس الأول لالغاء الرقيق منذ خمسة عشر قرنا من الزمن، ولم يحاول أن يلغيه كما يقولون: بجزء قلم: لأن الإسلام دين اصلاح لاهدم، ولودعا إلى تحرير كل العبيد لاهتزكيان العالم وفسدت المصالح وتعطلت حاجات الناس، وما استطاعوا فى ذلك الوقت أن يأخذوا سيرهم فى الحياة، فكانت الظروف الإجتماعية التى كانت موجودة عند ظهور الإسلام تحتم على كل مشرع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما، وتجمل محاولة الغائه تصاب بالفشل والاختفاق.

وأىضا فإن الإسلام لم يقر الرق إلا فى صورة تؤدى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج

يقول الأستاذ دعلي عبدالواحد وافي: ظهر الإسلام في عصر كان نظام الرق فيه دعامة تتركز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية، وتعتمد عليها جميع فروع الإنتاج في مختلف أمم العالم، فلم يكن من الإصلاح الاجتماعي في شيء أن يحاول مشرع تحريمه تحريماً باتاً لأول وهلة: لأن محاولة كهذه كان من شأنها أن تعرض أوامر المترع للمخالفة: والإمتهان، وإذا أتيح لهذا المشروع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به إرغام العالم على تنفيذ ما أمر به فإنه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهزة عنيفة، ويؤدي تشريعه لى اضرار بالغة لا تقل في سوء مغبتها.

عما تتعرض له حياتنا في العصر الحاضر إذا الغى بشكل مفاجئ نظام البنوك أو الشركات المساهمة فيكون ضررها أكثر بكثير من نفعها (٣٩)

ولقد استخدم الإسلام في بعض الأحيان طريق التدريج في تحريم الخمر، وقد كان العرب من أكثر الناس تناولا لها، فلو حرمت مرة واحدة لأدى ذلك إلى تفكك المجتمع وتمسك البعض بها فبين الشارع الحكيم ضررها أولاً ولم يحرمها في بادئ الأمر ثم حرمها عند إرادة الصلاة (ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) (٥٠) وفي المرتين امتنع بعض الناس عن تناولها ثم بعد ذلك حرمها مطلقاً، (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (٥١)

ثم يقول الأستاذ وافي "وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق في صورة سليمة هادئة وأتاح للعالم فترة للانتقال يخلص فيها شيئاً فشيئاً من هذا النظام" (٥٢)

أثر الرق في الإسلام

كان سبب الرق في الإسلام وقوع الكافر أسيراً في يد المسلمين عند الحرب، فإذا حارب المسلمين الكفار قمن وقع أسيراً في يد المسلمين عند الحرب جاز للإمام أن يسترقه رجالاً كانوا أو نساء وكان الأرقاء يوزعون على المسلمين غنائم حرب كما نص

عليه الشرع الحكيم وكما جاء في القرآن الكريم (واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير (٥٣)

ولما كان الإسلام يستبيح الرق في حالة الحرب، وقد انتصر في المعارك التي خاضها في أول العهد بالدعوة فقد كثر الأسرى والرقيق، وكان وجودهم مع العرب بالكيفية التي حث الإسلام على اتباعها معهم له أكبر الأثر في عملية المزج بين العرب وغير العرب حيث فتحت بلاد كثيرة من غير العرب في الشام والعراق وبلاد فارس و مصر و شمال أفريقيا على مر العصور والأزمنة.

ووجد العرب في الإماء والرقيق خير عون على الحياة، وتزوج كثير من الأرقاء. بعد عتقهم. بالعربيات، ولم يروا في ذلك عيبا ولا غبار عليه، وبالتالي تسرى وتزوج كثير من العرب الإماء من غير العرب وحصل مزج كان له أكبر الأثر في الحياة العقلية، ودخل البيت العربي عناصر فارسية ورومانية، وسورية، ومصرية، وبربريه، وبطريق التناسل اختلط دم العربي بغيره من الدماء، فانتج أعظم العقول المفكرة.

يقول الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار. إن الصحابة رضی الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزد جرد ملك الفرس، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزد جرد أيضا، فقال له علي بن أبي طالب ان نبات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن فقال كيف الطريق الى العمل معهن؟ قاله يقومن، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن، فقومن فأخذهن علي بن أبي طالب فدفن واحدة لعبد الله بن عمرو وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولد عبد الله بن عمر ولده سالما وأولد الحسين زين العابدين وأولد محمد ولده القاسم فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وامها تهم بنات يزد جرد(٥٣)

ويقول المبرد في كتابه الكامل "وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد

حتى يشافئهم على بن الحسين وقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ففاقوا اهل المدينة
فقيها وورعا فرعب الناس في السراى (٥٥)

ويقول أحمد أمين رحمه الله "هؤلاء الأرقاء والموالي أنجبوا في الجيل الثاني لعهد
الفتح عددا عديدا، يعد من بعد، من سادات التابعين وخيرة المسلمين، ومن حملة لواء
العلم في الإسلام (٥٦)

ولما كان عدد الزوجات في الإسلام مقيدا بالأربع وليس مقيدا بالنسبة للإماء، فقد
عاشر المسلمون كثيرا من الإماء. وانجبوا كثيرا من الأولاد والبنات وكثيرا ما كان
العرب يجنون لأنهم يفتخرون بكثرة الأولادو بذلك اختفى النظام القبلى الذى كان
أساس المجتمع العربى من القديم، ولم يقيموا وزنا للدم العربى، ولم يعد لانتقاء الزوجة
العربية أى أثر. ووصل بعد ذلك الذين أمها تههم من الرقيق إلى الخلافة مثل يزيد الثالث
فى الخلافة الأموية فإن أمه غير عربية، فقد كانت فارسية أسرها القائد قتيبة فى الصفد ثم
أهداها إلى الوليد فولدت له يزيد.

وكذلك العباسيون فالمنصور ابن أمة من البربر والمأمون ابن أمة فارسية، ومثله
الواثق والمهتدى، وكانت أم المنتصر يونانية أوحشية، وأم المكتفى والمقتدر كانتا
تركيتين وأم المستضى أرمنية، وكانت الخيزران نفسها أم الرشيد أجنبية وهى أول امرأة
اضطلعت بسلطة واسعة فى شئون الدولة العباسية (٥٧)

ولقد أثر الرقيق فى حياة الدولة فى جميع مناحى الحياة السياسية والدينية والعلمية
والأدبية، ووصل بعضهم إلى الوزارة والكتابة الا أن الدولة اتجهت بالرقيق غير الإتجاه
الإسلامى الصحيح، فدخلوا فى سوق النخاسين يشترون العبيد المخطوفين
والمنهومين، والذين يؤتى بهم بطريق غير شرعى، فاشترى كثيرا من الغبيد من أوروبا
وأطلقوا عليهم المماليك، ووصل إليهم الكثير من بلاد الروم وغيرها ومن بلاد فارس،
واتخذوا منهم العسكريو الجيوش التى يحاربون بها بعضهم بعضا أو يحاربون بها الأعداء

إلا أنهم في النهاية يقتلون الأسياد والخلفاء ويستولون على الحكم كما حصل في أواخر الدولة العباسية.

ولا يحتج بهم على التشريع للرق في الإسلام لأن أعمالهم وعمل من أتى من بعدهم ليست من الإسلام والإسلام برئ منها لأن معظم الرقيق والحواري لم يكونوا عن طريق حرب إسلامية يدافع فيها المسلمون عن عقيدتهم، إنما كان عن طريق شراء المخطوفين والمخطوفات والراغبين والراغبات وغير ذلك مما يتبرأ منه الإسلام والمسلمون.

حوالجات

١. لسان العرب لابن منظور. ١١/٣١٠
٢. دائرة المعارف الحديثة لأحمد عطية ماده "البرق"
٣. قصة الحضارى تأليف ول ديورانت، ترجمه زكى نجيب، ١/٣٤
٤. قصة الخصارى تأليف، ١/٣٨
٥. حقائق الاسلام للعقاد، ص ٢١،
٦. يوسف: ٢
٧. سفر التكوين ٣١، ٢، ٤ وسفر التثنية: ٢١، ٢٣، ٤
٨. النظم الاسلاميه، د/حسن ابراهيم، ص ١، ٣
٩. حقائق الاسلام وابطال خصومه، ص ٢٠٩
١٠. دائره معارف القرن العشرين نهـ حمـد فريد وجدى، ٣/٢٤٨
١١. الرق في الاسلام لأحمد شفيق، ص ١١
١٢. دائره معارف القرن العشرين، ٣/٢٤٥
١٣. الرق في الاسلام لأحمد شفيق، ص ١٨
١٤. نفس المكان
١٥. معجم الأروس، ماده "رق"

١٦. النظم الاسلامية، ص ١. ٣
١٧. نفس المكان
١٨. دائره معارف القرن العشرين، ٢٧٧/٣
١٩. الرق في الإسلام، ص ٣٢
٢٠. دائره معارف القرن العشرين، ٢٧٨/٣
٢١. النساء: ٢٨
٢٢. الحجرات: ١٣
٢٣. الترغيب والترهيب للمندري، ٥٧/٣
٢٤. الحجرات: ٩
٢٥. الاسراء: ٤٠
٢٦. الحج: ٣٩-٣٠
٢٧. التوجيه الاجتماعي، ص ٩
٢٨. سورة محمد: ٢
٢٩. اسباب النزول للسيوطي سورة النور
٣٠. النور: ٣٣
٣١. اسباب النزول للسيوطي النور
٣٢. النور: ٣٣
٣٣. اسباب النزول للسيوطي ٢٦١ النور
٣٤. النساء: ٩٢
٣٥. اسباب النزول للسيوطي سورة النساء
٣٦. المائدة: ٨٩
٣٧. المجادلة: ٣

٣٨. البلد: ١١-١٣
٣٩. التوبة: ٦
٣٠. ابو داؤد، كتاب العتق، ١٣/٢٠٣-٢٠٠
٣١. ابو داؤد، كتاب العتق، ٣/٢٦٠
٣٢. مسند احمد، ١/٤٤٠
٣٣. مسند احمد، ٢/٣٠٩
٣٣. مسند احمد، ٢/٣١٦
٣٥. مسند احمد '٣١٦/٢' ابو داؤد 'كتاب الادب' ٥/٢٥٦
٣٦. صحيح بخارى مع الفتح 'كتاب العتق' ٥/١٤٤
٣٧. المعجم الكبير للطبراني '١٠/٣٣٠
٣٨. حضارة الاسلام' ص ٣٥٩
٣٩. حقوق الانسان فى الاسلام' ص ١٣٠
٥٠. النساء : ٣٣
٥١. المائدة : ٩٠
٥٢. حقوق الإنسان '١٣١
٥٣. الانفال : ٣١
٥٤. فجر الاسلام' ص ١٠٨
٥٥. فجر الاسلام' ص ١٠٩
٥٦. فجر الاسلام' ص ١٠٨
٥٧. تاريخ العرب فيليب هتى' ص ٢٠٩